اصل الشرائع والقوانين

للناس في البحث عن اصل الشرائع والقوانين والعوائد والاخلاق والعلوم والصنائع اساليب مختلفة فبعضهم يعتمد على الحدس والتخمين فيرى في الامر رأياً ويزعم انهُ عرف حقيقتهُ او انهُ كوشف بها وهو اسلوب اكثر القدماء ومن حذا حذوهم من المتأخرين . ولا شيء من اقوالهم وآرائهم يقوى على الانتقاد والتمحيص لانهم لم يتكلفوا البحث ولا وقفوا على الحقائق . وبعضهم يعتمد على ما يراهُ في كتب الاقدمين وما يُنسَب اليهم سواء كانت تلك الكتب حقيقيَّة او موضوعة وهذا الاسلوب ليس اقرب الى الحقيقة من الاسلوب الاول لان الاقدمين لم يكونوا ادنى الى العصمة من غيرهم وقلَّما نُسِب اليهم شيء وكانوا هم اصحابهُ بل الغالب ان اهالي القرون الوسطى كانوا يضعون الاقوال وينسبونها الى الاقدمين . وما احسن ما قالهُ العلاَّمة ابن خلدون في اكثر ما كتبهُ الاقدمون فقد قال "ان اخبار القرون الماضية من قبل العرب العاربة يتنع اطلاعنا عليها لتطاول الاحقاب ودروسها الاَّ ما أفيضَهُ علينا الكتابُ ويؤثر عن الانبياء ويوحى اليهم وما سوى ذلك من حطام المفسرين واساطير القصص وكتب بدء الخليقة فلا نعوّل على شيء منهُ وان وجد لمشاهير العلماء تآليف مثل كتاب الياقوتة للطبري والبدء للكسائي فانما نحوا فيها منحى القصَّاص وجروا على اساليبهم ولم يلتزموا فيها الصحة ولا ضمنوا لنا الوثوق بها فلا ينبغي التعويل عليها ونترك وشأنها " الاَّ انهُ لم يلبث ان نحا منحى اولئك القصَّاص فشحن تاريخهُ باموراً لا نصدّق

وللمتأخرين اسلوب حديث للبحث عن اصل الشرائع والقوانين وكل دعائم العمران وهو استقراء احوال الامم الحاضرة متمدنها ومتوحشها والاستدلال باحوال المتوحشين على مبدإ العمران واحوال دعائمهِ . ونضرب لايضاح ذلك كلهِ مثل رجل رأى سفينة بخاريَّة كثيرة الآلات والادوات تخر البحر الخضم وتهزأ باموا جهِ وتياراتهِ ولم يكن قد رأى سفينة بخاريَّة ولا شراعية ولا قاربًا يجري على ظهر الماء فسأل عن منشإ هذه السفينة وكيفية وجودها فقال لهُ بعضهم ان الهًا من الآلهة اغتاظ من البحر وامواجهِ فخلق هذه السفينة ليركبها الناس ويرغموا بها انف البحر ويكسروا كبرياءهُ . وقال آخر حدَّثني ابي عن جدي عن فلان عن فلان انهُ كان لملك من ملوك الروم فتاة بارعة الجمال فاحبها مارد من مردة الجان وخطفها وسار بها في الآفاق البعيدة فحزن ابوها عليها ولم يجد الى السلوى سبيلاً وكان عندهُ صانع ماهر

فصنع له سفينة تجري في البحر بقوة البخار وركب معه فيها وذهبا ينتشان عن ابتو فرآها اهالي اوربا وامعنوا نظرهم فيها وتعلموا منها انشاء السفن البخارية

وقال آخر تعال معي فأريك كيف نشأت هذه السفينة وادخله دارًا فسيحة رُتّبت فيها السفن بحسب ارتقائها من الارماث التي تطفو على وجه الماء لحقتها الى القوارب المجوفة بالنار الى السفن ذات المجاذيف الى السفن الشراعية الى البواخر والبوارج الكبيرة . ورأى البواخر فيه متدرّجة من اول باخرة صنعها فلتن الاميركي الى آخر باخرة اجتمعت فيها بدائع الصناعة وعجائب الاختراع وكلٌّ منها ارقى من التي قبلها واتقن صنعًا ولو بشيء طفيف . فرأى لاول وهلة ان السفينة التي شاهدها على سطح البحر قد ارتقت ارتقاء متدرّجًا من قطعة من الخشب طفت على وجه الماء وركبها احد اسلافنا المتوحشين فحملته وسارت به مع التيار الى ان صارت تشق عباب البحار وتستغني عن الشراع والمجذاف بقوة البخار . وعقل الانسان هو المبتدع لاشكالها المتزايدة ارتقاء ويدهُ هي الصانعة لادواتها المتزايدة اتقانًا . واذا طاف مالك الارض وساح بين اقوامها المختلفين في درجات الحضارة رأى هذه السفن كلها على انواعها واشكالها لم تزل مستعملةً عندهم فاقلهم حضارة يستعملون الارماث والقوارب المجوفة بالنار وارقاهم عمرانًا يعتمدون على اكثر السفن البخارية اتقانًا ولو بقي عندهم بعض السفن الشراعية وبعضهم يستعمل الانواع كلها لانهُ لم يمضِ على اختراع السفن البخارية مدة كافية لاهمال السفن القديمة وانقراضها

فلا يخفى ان هذا الاسلوب الاخير اصح الاساليب لمعرفة الماضي والوقوف على اصل الشرائع والقوانين والعلوم والفنون . وعليهِ اعتماد اكثر الباحثين في هذا العصر فتراهم يقابلون بين اخلاق الامم وعوائدهم واعمالهم ويحسبون البسيط الساذج اصلاً للمركّب المتقن ويبينون كيفية نشوء الواحد من الآخر بطريقة معقولة تستلزم التصديق وتدعو الى الاقناع

وهذا الاسلوب لا يسلم من الخلل لان الارتحال الى البلدان الشاسعة كثير المشقّة لا يقدم عليهِ الاّ قليلون ولا يمكنهم ان يقيموا في تلك البلدان مدة كافية لتعلُّم لغات اهلها والنظر في اخلاقهم وعوائدهم واعمالهم بعين التروي . ولكنهُ اقرب الى الحقيقة من الاسلوبين السابقين واصلاح خللهِ غير متعذر بزيادة التحقيق والتمحيص ولذلك اعتمدنا عليهِ في ما يلي

وقد يُظن لاول وهلة ان الاقوام المتوحشة والقبائل الضاربة في البوادي غير مرتبطة بشرائع صارمة ولا هي مسأولة عمّا تعمل . والواقع على الضد من ذلك فان الذين ساكنوا اولئك الاقوام وعاشروهم وشافهوهم مجمعون على انهم مرتبطون بعوائد حاكمة عليهم حكم

الشرائع الصارمة وهم خاضعون لها صاغرين لا يجدون مناصًا منها ولا يستطيعون نقضها بوجه من الوجوه . وعندهم من الامر والنهي ما يفيدهم في كل اعمالهم ولو كانت غير مكتوبة . وهذا ايضًا شأن الشعوب الذين عندهم شيء من الحضارة فحكومة بيرو باميركا الجنوبية كانت تبعث رجالها الى كل بيت من بيوت رعاياها لترى ما اذا كانوا قائمين بما تفرضهُ عليهم من حيث تنظيم بيوتهم وتربية اولادهم . وحكومة مداغسكر كانت تعاقب بالموت كل من يتنقل من بلادهِ الى غيرها بدون اذن منها . واهالي بابان يقولا الى عهد قريب ينامون ويقومون ويأكلون في اوقات مفروضة لا يجوز تعدّيها ولكل يوم من ايام الشهر طعام خاص لا يجوز اكل غيرهِ فيهِ فلا يجوز اكل دود الحرير في اليوم الاول ولا اكل الذرة في اليوم الثاني ولا السكر في الثالث ولا الموز في الرابع ولا البطاطا الحلوة في الخامس ولا الارز في السادس وهلمَّ جرًّا . والقيود اشد من ذلك على الشعوب المتوحشة . قال المستر لانغ في كلامهِ على اهالي استراليا الاصليين انهم خاضعون لاحكام وقوانين وعوائد صارمة ظالمة لا اظلم منها على وجه البسيطة وبها يكون الضعيف في قبضة القوي عرْضًا ودمًا ومالاً والصغير في قبضة الكبير . وشرائعهم تحرم الطيّبات على النساء وتحلّلها للرجال وتحرّمها على الصغار وتحللها للكبار . والرجل الكبير يتزوّج سبع نساء والشاب لا يستطيع ان يتزوج بواحدة ما لم يكن لهُ اخت ينايض عليها باخت رجل آخر ويجب ان يكون قادرًا على حمايتها والاّ اغتصبها غيرهُ منهُ . وافا اصطاد احد الاستراليين صيدًا لم يحلّ لهُ اكلهُ لانهُ مقيّد بحسب شرائع بلادهِ ان يعطي الرأس لاحد اعضاء عائلتهِ والصدر لآخر وهلم جرًّا ويأخذ هو النصيب المعين لهُ بحسب تلك الشرائع

واذ قد تمهّد ذلك ننظر في بعض الشرائع المرعيّة عند اهل الحضارة عمومًا ونلخص ما كتبهُ اهل البحث والتحقيق في شأنها

من اول الشرائع شريعة امتلاك الارض فقد ظن كثيرون من الكتّاب ان امتلاك الارض لم يراعَ الاّ بعد ان تحضّر الناس واستخدموا الفلاحة ولكن يظهر لدى البحث ان بعض الامم راعوا حقوق التملّك قبل ان صاروا اهل فلاحة والبعض بقيت الارض عندهم مشاعًا بعد ان تحضروا واعتمدوا على الفلاحة في معيشتهم . فمن النوع الاول ما ذُكر عن كلب بن وائل وهو انهُ حمى ارضًا ومنع دخول انعام غيرهِ اليها وجرّ ذلك الى حرب البسوس كما هو معلوم . ولكن الغالب ان الارض التي يحميها اهل الوبر تكون ملكًا للقبيلة كلها ولا تكون مقسمة بين افرادها . ومنهُ ان اهالي استراليا الاصليين وهم من اشد الناس توحشًا

يقتسمون الارض ويتملك كلٌ منهم جانبًا منها ويورثهُ لابنائهِ ويقسمهُ بينهم قبل مماتهِ اما البنات فلا يرثنَ شيئًا من عقار آبائهنَّ. وعندهم اراضٍ يكثر فيها الصمغ فاذا كان ابان اجتناء الصمغ صارت مشاعًا لكل القبيلة الفريتمتعها ولا يجوز لاحد ان يدخلها في وقت آخر غير مالكها . وبعض الاستراليين يعدون مياه الانهار ملكًا ومن صادصيدًا في ارض غيرهِ او ماء غيرهِ فعقابهُ الموت بخلاف اهالي اميركا فان الارض عندهم مشاع . ولعلَّ سبب ذلك اعتماد اهالي استراليا على صيد الحيوانات الصغيرة التي يكثر وجودها في الارض ويسهل صيدها بلا مطاردة طويلة بخلاف اهالي اميركا الذين يصيدون الحيوانات الكبيرة النادرة السريعة العدو فيضطرون ان يجوبوا بلادًا كبيرة في التفتيش عنها ومطاردتها فلو اقتسم هنود اميركا ارضهم مثل الاستراليين لمات كثيرون منهم جوعًا والصيد كثير في اراضي جيرانهم

والنوع الثاني وهو شيوع الارض عند اهل الفلاحة والزراعة كثير قديمًا وحديثًا . ذكر تاشيتوس المؤرخ ان الارض الزراعية كانت مشاعة عند الجرمانيين القدماء يتملكها الواحد منهم بعد الآخر مناوبةً وقال يوليوس قيصر ان الحكَّام كانوا يقسمون الارض ويوزعونها على الناس عامًا بعد عامٍ . وفي بعض البلدان تكون الارض ملكًا في بعض شهور السنة ومشاعًا في البعض الآخر ولم تزل آثار هذه العادة في بلاد الشام حيث تترك الارض بعد حصادها او بعد جني الجانب الاكبر من اثمارها لترعى فيها المواشي ويأكل منها المسكين وابن السبيل . والارض المشاع شائعة الى يومنا هذا في اكثر بلاد الشام فلكل بلد او قرية مشاع مشترك بين اهاليها فهو مشاع بالنسبة اليهم وملك لهم بالنسبة الى غيرهم

وامتلاك الارض لا يستلزم ان يكون الناس قد عدُّوها من الامتعة التي تباع وتشترى حينما اعتمدوا على شريعة التملك بل ان التملك سبق حسبان الارض منها بقرون كثيرة ولم يشع حتى بيع الارض في اكثر البلدان الاَّ منذ سنين قليلة مع ان بعض الشعوب القديمة كالبابليين والاشوريين والفينيقيين والعبرانيين كان يعملون بهِ كما نعمل بهِ نحن الآن وقصةُ ابرهيم الخليل وابتياعهُ مغارة المكفيلة لدفن زوجتهِ سارة بثمن محدود من الفضة اقوى دليل على ذلك ولم تزل حجج بيع العقار محفوظة من ايام الاشوريين القدماء

والوصية شريعة عامة في اكثر الممالك المتمدنة وهي احدث عهدًا من التملك فان صولون الحكيم اول من ادخل الوصاية في بلاد اليونان ولم تكن تُعرَف قبل عهدهِ وكانت محصورة حينئذٍ في من يموت بلا عقب . ولم يعمل اهالي اسبرطة بالوصاية الاَّ بعد حروب

المورة. ولا اثر للوصاية في شرائع الجرمانيين القدماء ولا في شرائع الهنود ولكنَّ كثيرين من الموحشين يراعون الوصاية و يحسبونها حقًّا شرعيًّا كالحالي فانهُ اذا مرض احدهم دعا اولادهُ او اقاربهُ وقسَّم عليهم املاكهُ فيحقُّ لهم امتلاكها بعد وفاتهِ كما قسمها عليهم

والظاهر ان الناس عمدوا الى الوصاية اولاً في ما اذا مات احدهم ولم يخلف عقبًا لكي يبقي اموالهُ لمن يهم بهِ بعد مماتهِ فان الرومانيين مثلاً كانوا يعتقدون ان ارواح آبائهم تتردَّد على بيوتهم وتتشاءم من روح الفوت الذي يقدم لها فاذا لم يكن للانسان ابن تبنَّى آخر او اوصى بمالهِ لآخر لكي يقرِّب لهُ القرابين غذاء لروحهِ بعد موتهِ. وكان عند الرومانيين باعث آخر بعثهم على ايجاد الوصاية وهو انهم كانوا يعتقون بعض ابنائهم تمييزًا لهم وبما ان المعتوق لا يرث مع اخوتهِ اوصوا لهُ ببعض اموالهم

والوراثة شائعة على اختلاف الناس في كيفيتها فبين الهنود يحق للابن سهمهُ من مال ابيهِ حال ولادتهِ ولا يحق لابيهِ بيع املاكهِ ما لم يشر الى اشتراك ابنهِ معهُ واذا بلغ ابنهُ رشدهُ حقَّ لهُ ان يقسم عن ابيهِ و يتصرَّف بنصيبهِ كيف شاء واذا قسم الاولاد كلهم عن ابيهم بقي لهُ نصيب اثنين منهم لاغير. وشريعة الجرمانيين القدماء مثل شريعة الهنود. وقد تطرفت بعض الشعوب في ذلك فحرمت الاب من كل املاكهِ حالما يولد لهُ ولد ذكر ومن ثمَّ يصير الاب وصيًّا لابنهِ البكر و يصير البكر مالكًا ووليًّا على اخوتهِ. وقد ظن السر جون لبُك ان تحية الرجل بالاضافة الى اسم بكرهِ في كثير من البلدان تشعر بافضلية البكر ولذلك يضاف الاب اليهِ بعد ولادتهِ

واذا ماتت امرأة في سيلان ورثها بنوها و بناتها اما البنون فالارث خاص بهم واذا مات احد منهم قبلها انقطع ميراثهُ واما البنات فيرثنها هنَّ وورثاؤهنَّ اذا متنَ قبلها . واما الرجل فيرثهُ اخوتهُ واذا لم يكن لهُ اخوة او اذا مات اخوتهُ قبلهُ ورثهُ اخواتهُ وسبب ذلك ان الارض لا تباع عندهم فاذا تزوَّج رجل من غير قبيلتهِ وانتقل الى قبيلة امرأتهِ لم يمكنهُ ان يبيع املاكهُ ولا ينقلها فيتركها لاخوتهِ الذين في قبيلتهِ . واذا تزوجت امرأة مرتين فما ورثتهُ من امها يرثهُ اولادها الذين ولدوا لها من زوجها الاول

والغالب ان ميراث الاب ينتقل الى بكرهِ وحدهُ او يقسم بين اولادهِ كلهم ولكنَّ التتار يتركون ميراثهم كلهُ للابن الاصغر بعد ان يعطوا اخوتهُ جانبًا من متنبياتهم و يصرفوهم. وقيل انهُ اذا مات رئيس من رؤساء الكنغرة خلفهُ احد ابنائهِ الغصار واما الابناء الاكبران فلا حقَّ لهما ان يخلفاهُ . وفي شمالي استراليا يرث الاولاد كلهم ذكورًا واناثًا ولكن الولد

الاصغر يرث النصيب الاكبر . وبعض اهالي الهند يتركون العقار كلهُ للبكر والمنقولات للولد الاصغر واما الاولاد الباقون فلا يرثون شيئًا بل يبقون عند اخيهم الاكبر كما كانوا في عهد ابيهم . وسيأتي بسط الكلام على بقية الحقوق في الجزء التالي

معرض شيكاغو العام

يعلم اكثر القراء الكرام انهُ سيفتح معرض عام في مدينة شيكاغو احدى عواصم الولايات المتحدة الاميركية سنة ١٨٩٣ تذكارًا لاربع مئة سنة مرَّت منذ اكتشف خريستوفورس كولمبس قارَّة اميركا . وسيجتمع في هذا المعرض الوف والوف من امم الارض كلها وتعرض فيهِ بدائع المصنوعات والمكتشفات والمخترعات وكل ما ابتكرهُ العقل او اصطنعتهُ اليد او انتجتهُ الارض من جماد ونبات وحيوان

وقد قرَّر رئيس الولايات المتحدة الاميركية فتح هذا المعرض بمنشور عام نشرهُ في الرابع والعشرين من شهر دسمبر (ك١) سنة ١٨٩٠ قال فيهِ

"انا بنيامين هريسن رئيس الولايات المتحدة أُعلن فتح معرض كولمبيا العام في غرَّة شهر مايو (ايار) سنة الف وثمانمئة وثلاث وتسعين في مدينة شيكاغو في ولاية الينويز ولا يقفل قبل يوم الثلاثاء الاخير من شهر اكتوبر (ت١) من تلك السنة

وباسم حكومة الولايات المتحدة وشعبها ادعو جميع امم الارض لكي يشتركوا معنا في تذكار الامر الذي لهُ المقام الاول في تاريخ الانسان ومنهُ فائدة دائمة لهُ وذلك بان يعينوا نوَّابًا ينوبون عنهم في هذا المعرض وان يرسلوا اليهِ المواد التي تمثِّل خيرات ارضهم ومصنوعات بلادهم وعمرانها ونجاحها"

وقد نجحت امور هذا المعرض الى الآن نجاحًا يفوق انتظار الشارعين فيهِ فأُعدَّ لهُ من عشرين الى خمسة وعشرين مليونًا من الريالات الاميركية . وعينت دول الارض مبالغ وافرة اعانة للذين يعرضون امتعتهم فيهِ من رعاياها وسيجتمع فيهِ اشهر العلماء والادباء ويعقدون مؤتمرات كثيرة تبحث في جميع المسائل العلمية والمعاشية على انواعها وضروبها حتَّى يكون اعظم معرض أُنشئ في القرن التاسع عشر من جميع الوجوه

ومدينة شيكاغو ممتازة على كل مدن اميركا ومدن المسكونة بجمال موقعها وسرعة نموها ورواج الاعمال فيها فهي المدينة التي كانت منذ سنين قليلة قرية صغيرة فصار فيها الآن